﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما زال الحديث موصولًا عن صفات المنافقين؛ فذكر في الآيات السابقة أنّهم يتربّصون بهم الدّوائر، ويريدون أن ينالوا من الغنائم من غير أن يعملوا، وقلوبهم مع الكافرين، ثم جاءت هذه الآية لتذكر وصفًا آخر لأهل النّفاق، وهو أنّهم يظنّون أنّ أعمالهم مستورة، وأنّ النّاس عنهم غافلون، بل إنّه ليصل بهم فرط غرورهم إلى أن يظنّوا أنّ الله تعالى لَا يعلم ما يسرّون وما يعلنون، ويعاملوا النّاس على أساس هذه الخديعة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: (خدع) أصل واحد وهو إخفاء الشّيء، مأخوذٌ من خدع الضّب: أي استتر في جحره[2]، و"الخداع أن يحاول المخادع حمل الغير على تغيير اعتقاده فيه، بحيث يعتقد فيه الخير، وليس أهلًا لهذا الاعتقاد، فيوهمه أنّ أمره على ما يحبّ، وهو على ما يكره، أو أن يُظهرَ من الأفعال ما يُخْفِي أمرَه، ويستر حقيقتَه، بغية تضليل من يعامله"[3].

2) ﴿كُسَالَىٰ﴾: (كَسَلَ) أَصْلٌ وَهُوَ التَّثَاقُلُ عَنِ الشَّيْءِ الذي لا ينبغى التثاقل عنه وَالْقُعُودُ عَنْ إِتْمَامِهِ، وَالْفُتُورُ عنه[4]، ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، أي "يقومون متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئًا على كُرْه، لا عن طيب نفس ورغبة"[5].

3) ﴿يُرَآءُونَ﴾: "﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ معنى الرّياء: إظهارُ الجميل ليراه النّاس، لا لاتّباع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خدع).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(4) أ ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسل)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/108.
(5) الواحدي، البسيط: 7/160، والزمخشري، الكشاف: 1/579.

أمر الله"[1]، "وهو من الرّؤية البصرية التي جاء بها غالب مواضع هذا التركيب في القرآن "[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّ المنافقين يخادعون الله بإظهار الإسلام وإضمار الكفر، والحقيقة أنّه تعالى هو خادعهم؛ لأنّه عصم دماءهم مع علمه بكفرهم، وأعدّ لهم أشدّ العقوبة في الآخرة، ومن صفاتهم أنّهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى كارهين لها، وهم لا يذكرون الله إلا قليلًا؛ لأنّهم يذكرونه إذا رأوا المؤمنين وحسب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل الآية عمَّا قبلها وعدم عطفها:

فصل الجملة لأنّها جاءت جوابَ سؤالٍ عن الدّافع من تربّصهم

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها؛ لأنها جاءت جوابًا لسؤال نشأ عن سلوك المنافقين في الآية السابقة من الحالة المضطربة والقلقة في سلوك المنافقين؛ فيقولون للمؤمنين عند الفتح والنصر ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، ويقولون للكافرين عندما يكون لهم نصيب من النّصر ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية؛ فكانت هذه الآية بمثابة الجواب عن هذا السؤال، إنهم يفعلون ذلك مخادعة للمؤمنين وجهلًا منهم بصفات العليم الخبير.

دلالة الاستئناف:

استئناف لبيان فيه مزيدٌ من كشفِ قبائحهم

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ استأنف لبيان "طرف آخرَ من قبائح أعمالِهم أي يفعلون ما يفعل المخادِعُ من إظهار الإيمانِ و إِبْطانِ نقيضِه"[4].

(1) الواحدي، البسيط: 7/160، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/422.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رأى).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245 - 246.

سر التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ في بدء الآية:

أخبر بالجملة المؤكّدة لتحقيق حالتهم العجيبة

بيّن ابن عرفة الغرض من التّأكيد بـ (إنّ)؛ فقال: "إنّما يصحّ إذا كان المخاطب منكرًا وطرأت عليه مخايل الإنكار، والتّأكيد هنا مصروف إلى ظنّهم أنّ خداعهم مؤثّر ونافع لهم"[1]. "وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِحَرْفِ (إِنَّ) لِتَحْقِيقِ حَالَتِهِمُ الْعَجِيبَةِ وَتَحْقِيقِ مَا عَقَبَهَا مِنْ قَوْلِهِ: وَهُوَ خادِعُهُمْ"[2].

السّرّ بالتّعبير عن النّفاق بالخداع:

لمّا أبطنوا الكفر وأظهروا خلافه من الإيمان كان ذلك خداعًا

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وصف ما يقومون به بأنّه خداع، والعلاقة بينهما ظاهرة؛ لأنَّ المخادع يظهر خلاف ما يبطن، والمنَافِقَ يظهر الإيمان ويبطن الكفر، "والمعنى: أنهم يعملون عمل المُخادع بما يظهرونه ويبطنون خلافه من النفاق"[3].

علّة التّعبير في المسند بالفعل المضارع:

أخبر بالفعل المضارع للدّلالة على الاستمرار، وإصرارهم على تكرار الخداع، مبالغة في تقبيح فعلهم

أخبر عن خداعهم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ بالفعل المضارع ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ للدّلالة على التّجدّد والحدوث والاستمرار، فهم لا يفعلون ذلك مرّة واحدة، بل يكرّرونه مستمرّين به، مبالغة في تقبيح فعلهم.

دلالة اختيار صيغة يخادعون دون يخدعون:

عبّر بصيغة المفاعلة للدّلالة على المبالغة في إحداث الفعل

اختار القرآن صيغة المفاعلة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ التي تفيد المشاركة في الفعل دون صيغة (يخدعون)؛ لأنّ المفاعلة تأتي للمغالبة والمنافسة، ومن المعلوم أنّ الفعل إذا كانت فيه منافسة لمن يقوم به كان أبلغ وأحكم منه إذا مارسه وحده من غير منافسة، وذلك بزيادة قوّة

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/239.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الدَّاعي إليه والتّنافس فيه، و في هذا إشارة أيضًا إلى مبالغة المنافقين في أمر الخداع.

أضاف الخداع لله تعالى وأراد أنّهم يخدعون المؤمنين:

نسب خداع المؤمنين لله تعالى تشريفًا لهم، وتعظيمًا لشأن المقصود بالخداع

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لا يجوز أن يتصوّر الخداع للّه رب العالمين؛ لأنه يعلم الباطن والظاهر، ولا يخفى عليه شيء، فإنّما هم يخادعون النّبي ﷺ "بإظهارهم له الإيمانَ وإبطانِهم الكفْرَ، فجعل الله ﷻ مخادعة النّبي ﷺ مخادعة له"[1]، وفي جعل ذلك خداعًا للّه تنبيه إلى: "فظاعة فعلهم فيما تحرّوه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرّسول إنّما يخادعون الله، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول ﷺ، وأنّ معاملته بذلك كمعاملة الله به"[2]، وتقدير الكلام: "يخادعون رسُولَ الله ويخادعون أولياءَ الله، فإن أريد الأوّل فالتّشريف من جهة واحدة وهو التّعبير باسم الله عن اسم رسول الله، وإن أريد الثّاني فالتّشريف من جهتين، لأنّه تشريف لأولياء الله، والتّشريفُ لأوليائه تشريف لرسوله من باب أحرى"[3].

دلالة تسمية فعل المنافقين خداعًا لله:

أطلق الخداع على فعلهم إظهارًا لقباحة سلوكهم

سمى الله ذلك خداعًا؛ لبيان فظاعة فعلهم فيما صنعوه وتحروه من الخديعة. والمراد به إظهارهم الإيمانَ وإبطانهم الكفرَ؛ ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويفوزوا بسهم من الغنائم، فسمّى فعلهم هذا خداعًا؛ لأنّ صورته صورة الخداع، ولا يجوز حمله على الحقيقة؛ لأنّ الله ﷻ لا يخفى عليه صنع المنافقين، بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء[4].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122 - 123، والواحدي، البسيط: 7/159.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/424، والخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64، والصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(4) الطّنطاوي، الوسيط: 1/55.

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف:

حـذف المضـاف (رسـول) وأقيم المـضـاف إليـه (الـلـه) مقامه تفظيمًا لعملهم

نسب خداعهم لله تعالى وهو خداع للنّبيّ ﷺ؛ إذ "نسق الكلام: يخادعون رسول الله، فحذفت كلمة الرّسول، وأقيم المضاف إليه وهو الله تعالى مقام المضاف تفظيمًا لعملهم، وإعلاء لقدر الرّسول والمؤمنين"[1]. "ومخادعَةُ المنافقين: هي لأولياءِ الله، ففِي الكلامِ حَذْفُ مُضَافٍ؛ إذْ لا يقصد أحَدٌ من البشر مخادَعَةَ الله سبحانه"[2].

المجاز بإسناد الخداع لله تعالى:

ذكر الخداع وأراد المجازاة، فتركهم معصومي الدّماء في الدّنيا، وأعدّ لهم سوء المنقلب يوم القيامة

نُسب الخداع لله تعالى في الآية من باب الاستعارة، حيث استعار اسم الخداع للمجازاة[3]؛ فالمراد بقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أي "مجازيهم بالعقاب على خداعهم"[4]. "وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدّماء والأموال في الدّنيا وأعدّ لهم الدّرك الأسفل من النّار في الآخرة، ولم يُخْلِهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم"[5]. ويجوز أن يكون الكلام من باب الاستعارة التّمثيليّة على استدراج الله إياهم، والمعنى: أَيْ فَقَابَلَهُمْ بِمِثْلِ صَنِيعِهِمْ، فَكَمَا كَانَ فِعْلُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَمْرَ الله وَرَسُولِهِ خِدَاعًا لله تَعَالَى، كَانَ إِمْهَالُ الله لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى اطْمَأَنُّوا وَحَسِبُوا أَنَّ حِيلَتَهُمْ وَكَيْدَهُمْ رَاجَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، و في هذا تشبيهٌ بِفعل المخادع جَزاءً وِفَاقًا. فَإِطْلَاقُ الْخِدَاعِ عَلَى اسْتِدْرَاجِ الله إِيَّاهُمُ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1916 - 1917.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/319.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/443.
(4) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/239.

الجناس الاشتقاقيّ في: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾:

جماليّة الجناس في الألفاظ، وتأكيدُ المعنى إيقاظًا لهم

وفيه دلالة على جمال التّعبير اللّفظيّ بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة، ولكن المراد في كل منهما مختلف. مع تَأكيدِ اللّفظ المكرّر الثّاني، فيقع التّنبيه عليه فيهتمّ به السّامع، إيقاظًا لهم وردعًا عن سوء فعلهم.

دلالة التّعبير بصيغة الفعل مع المنافقين، وبالاسم مع الله تعالى:

عبّر عن خداعهم بالفعل على صيغة المفاعلة في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾، وعبّر عن الخداع المسند لله تعالى بالاسم الدّالّ على الثّبوت فقال جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ "للدّلالة على الغلب، وأنّ الله تعالى لَا محالة كاشف أمرهم ومزيل مغبّة خداعهم، ومحاسبهم لَا محالة على ما يرتكبون"[1].

عبّر عن خداعهم بالفعل لحدوثه وزواله، وبصيغة الاسم في جزائهم لثبوته وتحققه

دلالة عطف ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ما قبلها:

عطف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ لاشتراكهما في كونهما من صفات المنافقين، وفيه إشارة إلى تفسير خداعهم للمسلمين بالتظاهر بإقامة الصلاة معهم.

عطف كسلهم في الصّلاة على خداعهم لأنّهما أبرز صفاتهم، وبيانٌ لوجه من وجوه خداعهم

دلالة اختيار ﴿وَإِذَا﴾ بدلًا من (إن) في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عبر بـ ﴿وَإِذَا﴾ التي تفيد تحقّق الوقوع إلى أداء المنافقين لصلاة الفرض من باب التّظاهر للمسلمين، وخداعهم بأنّهم يصلّون معهم، بخلاف (إن) التي تفيد الشّك في الوقوع؛ فلو قال: وإن قاموا إلى الصّلاة، لفهم أنّهم يصلّون بعض الصّلوات دون الأخرى، وعند ذلك ينكشف أمرهم.

عبّر بـ (إذا) لتحقّق وقوع الحدث، فقيامهم إلى الصّلاة بكسلٍ حقيقة لا مجاز

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.

دلالة تخصيص الصلاة بالذّكر دون غيرها من العبادات:

الـصّـلاة أظـهـر شرائع الإسلام

عبّر عن خداعهم وأعقبه بذكر شريعة من شرائع الإسلام ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، وهي الصّلاة؛ وإنّما خصّها بالذّكر؛ لأنّها العنوان الأكبر الذي به يعرف إسلام المرء من عدم إسلامه؛ فلو لم يصلّوا وتركوها جحودًا لكان ذلك كفرًا صريحًا.

إيثار التّعبير بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ دون (اللام):

نـهـايـة فـعـل المـنـافـقـين هـو الـقـيـام إلى الـصَّـلاةِ ولا يـبـتـغـون مـن ورائها أجرًا

آثر القرآن الكريم التعبير بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ الذي يفيد انتهاء الغاية، بخلاف (اللام) التي تفيد معنى الاستحقاق والعلّة، فلو قال: (وإذا قاموا للصلاة)، لفهم أنّهم قاموا من أجل الصلاة نفسها، والواقع أنّهم لا يفعلون ذلك لأجل الصّلاة، بل يريدون أن يكونوا مشاركين للمؤمنين في حضور الصلاة للمراءاة؛ فغايتهم تنتهي عند حضورها فقط.

دلالة (ال) في الصلاة:

كـان كسلهم في كـلّ صلاة فرضًا ونفلًا

دلّت (ال) في الصّلاة على العموم؛ فلم تحدّد صلاة بعينها، لذلك كان رياؤهم على العموم يدخل الفرض والنّفل، يؤكّد هذا ما قاله بعض العلماء أنّ الآية "دلّت على أَنَّ الرِّيَاءَ يَدْخُلُ الْفَرْضَ وَالنَّفْلَ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ فَعَمَّمَ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّمَا يَدْخُلُ النَّفْلَ خَاصَّةً، لِأَنَّ الْفَرْضَ وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَالنَّفْلُ عُرْضَةٌ لِذَلِكَ. وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْتِ بِالنَّوَافِلِ لَمْ يؤاخذ بها"[1].

سرُّ العدول عن (أقاموا الصلاة) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

لمّا كان إقامُ الصلاة معناه أداؤها في وقتها على وجهها الصحيح

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/424.

بخشوع، وكان ذلك ديدن المؤمنين الخُلَّص، عدل البيان القرآني المعجز عن ذلك، واكتفى بصفتهم حال قيامهم متكاسلين؛ لينفي عنهم صفة الإيمان، وليثبت أنَّ قيامهم رئاء الناس حائلٌ بينهم وبين الصلاة، كما حالت (إلى) بين قيامهم والصلاة، فكأنَّ قيامهم في جانب، والصلاة في جانب آخر.

لإثبات انفصالهم عن صفة المؤمنين، وانقطاعهم عن حقيقة الصلاة

وإذا تأمَّلْت (أقاموا الصلاة) المعدول عنها، علمت اتصال الإقامة بالصلاة، ورأيت المؤمنين المتمثِّلين في (واو الجماعة) هم الذين أقاموها، وظلوا ضميرًا مجموعًا.

وشتَّان بين من يُقيم الصلاة ولا يكاد يُرى، ومن قام بجسده إلى الصلاة؛ ليراه النَّاس، وهو أبعدُ النَّاس عن إقامتها!

دلالة تكرار الفعل ﴿قَامُواْ﴾ في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

لما كان التّعبير بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يفهم منه أنه صفة مدح؛ لأنّ القرآن يثني على المؤمنين بهذا الوصف، فأعاد ذكره في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لتحديد صفة القيام ودفع اللّبس الذي قد يرد من تخصيص الإقامة بالثّناء على المؤمنين.

كرّر فعل القيام، وقَرَنَهُ بصفة الكسل نفيًا بأن يكون صفة ثناء

العدول عن (صلّوا) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عدل السّياق عن قوله: (وإذا صلّوا) مع أنَّه أخصر؛ لئلَّا يُثبت لهم صلاةً أصلًا، وليُبعِد شُبهة كون الكسل ناشئًا عن إرهاق بدنيّ، فهذا يعتري الإنسان السَّويّ، وإنَّما هو ناشئٌ عن مرض قلبيّ، ووهن عقديّ.

وصفهم بالكسل للدّلالة على أنّهم لا يحتسبون الأجر عند الله تعالى؛ لفقدانهم الإيمان

سرّ وصف المنافقين بصفة الكسل في الصّلاة:

سرُّ ذلك أنَّهم يستثقلونها في الحال، ولا يرجون بها ثوابًا، ولا من تركها عقابًا، ولا يوجد داعٍ للفعل في نظرهم إلا خوف الناس، لذلك وقع فعلهم على وجه الكسل والفتور[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/79.

دلّ هذا الوصف على مظهر المنافقين في أداءِ الطاعات عمومًا والصلاة خصوصًا؛ فهم لا يقومون بأداء الطاعات إلا كسالى متثاقلين؛ فلا إيمان يبعثهم ولا نشاط يحركهم لأداءِ الصلاة على حقيقتها، بل يريدون مظهرًا يحفظون به وجودهم مع المسلمين[1]. "أي لا يرجون لها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا"[2]. فوصفهم بالكسل عن الصّلاة لعدم الدّاعية في قلوبهم، وأنّ مقصدهم من ذلك النّجاة من النّبيّ ﷺ وأصحابه[3].

دلالة الحال اللازمة في قوله: ﴿كُسَالَىٰ﴾:

من صفات المؤمنين إقامة الصلاة بنشاط وحب

الأصل في المؤمن أن يقيم الصلاة بنشاطٍ؛ لأنّه مقبل على ربّه بحبّ وعزيمة، ولذلك ذمّ الله المنافقين؛ لأنّهم يأتون الصلاة متململين كارهين، وأصبح ذلك حالهم، فقوله تعالى: ﴿كُسَالَىٰ﴾ "حَالٌ لَازِمَةٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿قَامُواْ﴾؛ لأَنَّ ﴿قَامُواْ﴾ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَقَعَ وَحْدَهُ جَوَابًا لِـ ﴿وَإِذَا﴾ الَّتِي شَرْطُهَا ﴿قَامُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَقَعَ مُجَرَّدًا لَكَانَ الْجَوَابُ عَيْنَ الشَّرْطِ، فَلَزِمَ ذِكْرُ الْحَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: 72]»[4].

إيثار التّعبير بالاسم ﴿كُسَالَىٰ﴾ دون يتكاسلون في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

آثر القرآن وصف كسالى بالاسميّة؛ للإشارة إلى لزومهم الكسل والفتور في قيامهم إلى الصلاة سواء كانوا في حالة جهد وتعب أو في دعة وراحة؛ فالكسل والفتور ليس ناتجًا عن ضعف بدني، وإنّما هو ضعف إيمانيّ ملازم له.

آثر التّعبير عن الكسل بالاسم للدّلالة على ثبوت هذا الوصف فيهم مع الصّلاة، ونفيًا لأن يكون كسلًا طارئًا

فائدة الفصل والاستئناف في: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها للإشارة إلى أنّها جواب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.
(2) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.
(3) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.

لسؤال نشأ من الجملة السّابقة، فقيل: ما الدَّاعي لقيامهم إلى الصّلاة كسالى؟ فكان الجواب: يراءون الناس، فهي جملة مستأنفة "لِبَيَانِ جَوَابِ مَنْ يَسْأَلُ: مَاذَا قَصْدُهُمْ بِهَذَا الْقِيَامِ لِلصَّلَاةِ وَهَلَّا تَرَكُوا هَذَا الْقِيَامَ مِنْ أَصْلِهِ، فَوَقَعَ الْبَيَانُ بِأَنَّهُمْ يُرَاءُونَ بصلاتهم النَّاس"[1].

استـأنـف لأنّ مضمون الجملة جواب عن سبب كـسـلـهـم في الصّلاة

السّر بذكر الرّياء بعد ذكر الكسل:

قوله جلّ شأنه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أخبر بأنهم "لا يقومون إلى الصّلاة إلّا لأجل الرّياء والسّمعة، لا لأجل الدّين ولا يرون أنّها واجبة عليهم"[2]، فهم يقصدون النّاس بصلاتهم ولا يريدون بها وجه الله[3]. وَ لمّا أخبر عن كسلهم بالصّلاة، كان ذلك إيماء إلى حقّ لديهم وإن كان قليلًا، فكونهم يصلّون - في ظاهِرِ الأَمْرِ - فضيلةٌ وإن كانوا متَّصفينَ بالكسل، فجاء الإخبار بأنّهم يراءون في الصّلاة لتأكيد انتفاء إيمانهم، وكون صلاتهم خاليةً من أيِّ فضيلةٍ، فهو تعقيبٌ للتّأكيد.

أخبر بالرّياء بعد الكسل تأكيدًا لانتفاء إيمانهم

دلالة التعبير عن الرياء بصيغة المفاعلة:

اختار القرآن الكريم هذه الصيغة؛ لإفادة وقوع المفاعلة من الجانبين؛ فالْمُرَائِي يُرِي النَّاسَ تَجَمُّلَهُ بِأَفْعَالِ الطَّاعَةِ، وَهُمْ يُرُونَهُ اسْتِحْسَانَ ذَلِكَ الْعَمَلِ"[4].

المـــرائي يُـــري النّـاسَ عملَه، وهـــم يُـــرُونَـــهُ اسْتِحْسَانَ فعلِه

سر العدول عن الاسميَّة في وصف المنافقين إلى الفعليَّة: ﴿يُرَآءُونَ﴾:

آثر التّعبير بالفعل ﴿يُرَآءُونَ﴾ بدلًا من الاسمية (مراءون)؛ للإشارة إلى تجدد هذا الفعل لأنّ الصّلاة متكرّرة، وما تعلّق بها فإنّه يتكرّر كذلك، ولمّا كان الرّياء أمرًا نفسيًّا يدلّ على مرض

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) الواحدي، البسيط: 7/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/109.

صاحبه من طلب ثناء النّاس بعمله؛ عبّر بالفعل الدّالّ على تجدّد طلب هذا الثّناء من النّاس مع كلّ عمل يعملونه.

آثـر التّعـبير بالفعل المضارع إشارة إلى تجدّد فـعـلـهـم، لأنّ الصّلاة متكرّرة ومـا تـعـلّق بها فإنّه يتكرّر أيضًا

دلالة لفظ الناس في قوله ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

المراءاة تدلّ على أنّ المقصود بالعمل النّاس، وإنّما أظهر لفظ النّاس في النصِّ على أنّهم يقصدون النّاس بعملهم، وفي ذلك زيادة من تأكيدِ انتفاء الإيمان، فغايتهم النّاس، وليس اللّه تعالى، وَ فيه إشارة إلى أن المرائي لما كان يبحث عن الشهرة؛ أرادَ إطلاع الناس جميعهم على كل عمل يعمله بشتى الوسائل بغية الشّهرة.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

الـوصـل عطفًا عـلـى الـجـمـلـة قبله لبيان كيفيّة كسلهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معطوف على قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾[1]، وذلك لشدة الاتصال بينهما؛ فالأعمال التي تفعل رياء، لا يذكر اللّه فيها، وإنّما يذكر النّاس، وبذلك تكون هذه الجملة مؤكّدة للمعنى السّابق، وفيه بيان لصفة الكسل، فهو قلّة ذكرهم اللّه تعالى.

سر التعبير بنفي الذكر عنهم إلا القليل:

الإخـبـار بالحقيقة كما هي، فِيهِ إنصافُ القرآن ولو مع عدوه وخصمه

عبر بنفيِ الذّكر عنهم إلا قليلًا من باب الإنصاف، وبيان الواقع؛ فمع نفاقهم لم ينفِ عنهم الذّكر مطلقًا، بل أثبت لهم القليل، ولعلّ ذلك في الصّلاة الفرضية فقط.

سر التّعبير بالذّكر مكان الصلاة:

الـذّكـر شامل لـكـلّ أنـواع الذّكر، والصّلاة عـلـى الأخـصّ لأنـهـا أهـمّ موضع للذّكر

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عبّر بالذّكر من باب العموم؛ ليشمل كلّ أنواع الذّكر فرضها ونفلها، والصّلاة من الذّكر؛ فتدخل فيه دخولًا أوّليًّا.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.

دلالة التعبير بالفعل المضارع المنفيّ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

عبّر بالفعل المضارع المنفيّ للدّلالة على استمرار انتفاء الذّكر الكثير، فحالهم لا يتغيّر

قوله جلّ شأنه ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نفى الذّكر عنهم بالفعل المضارع، للدّلالة على استمرار النّفي لصفة كثرة الذّكر، فهم وإن ذكروا الله في الصّلاة مواطن الشّدّة، فإنّهم لا يزيدون على موجب الاضطرار.

السّرّ في إثبات قلّة ذكرهم بالحصر دون الإخبار بالقلّة:

عبّر عن قلّة ذكرهم بالقصر لبيان أنّهم يفعلون ذلك اضطرارًا لا حبًّا لله تعالى

عبّر عن إثبات صفة القلّة في ذكرهم بقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فعدل إلى أسلوب القصر لإفادة عدم حبهم للذّكر والطاعة، ولم يقل: (ويذكرون الله قليلًا)؛ فهم إنّما يذكرون اضطرارًا وخوفًا؛ حتّى لا ينكشف أمرهم، بخلاف التّعبير بالذّكر القليل؛ فهو صفة مدحٍ للذّاكر وإن كان قليلًا، وقد يعذر في قلّة ذكره لأسباب لا قِبَلَ له بها؛ كمرض ونحوه، لكن هذا القليل فيه حبّ لله واعتراف بفضله.

دلالة حذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

حذف الموصوف للدّلالة على العموم، فالذّكر نفسُهُ قليلٌ وكذلك وقته

حُذف الموصوف في الآية؛ لإفادة العموم فقد يراد به الذّكر القليل، أو الزّمن القليل، والمعنى المراد أنّهم لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ إِلَّا حَالًا قَلِيلًا أَوْ زَمَنًا قَلِيلًا[1].

سر وصف ذكرهم لله تعالى بالقلة:

ذكرهم اللهَ تعالى قليلٌ، بحسب ما يقتضيه حضورهم مع النّاس

وصف القرآن ذكرهم لله تعالى بالقلة؛ لأنّهم لا يذكرون الله إلا ذكر رياء، "ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسّباء وسلبَ الأموال، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد الله، مخلص له الرّبوبيّة. فلذلك سمّاه الله ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأنّه غير مقصود به الله، ولا مبتغًى به التّقرّب إلى الله، ولا مرادٌ به ثواب الله وما عنده"[2]، فهم يذكرون الأذكار التي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/331.

يُضطرُّون إليها "من نحو التّكبير وما يظهر، دون القراءة والتّسبيح؛ لأنّهم يعملونه للنّاس"[1].

السّرّ في عدم مدحهم بهذا الذّكر:

لم يمدحهم الله على ذكرهم هذا؛ "لأنّه لا يجري على قلوبهم إلَّا قليلًا، لَا يلبث أن يطفئه النّفاق، وإذا قامت في قلوبهم شعلة من الإيمان بالله لَا تلبث أن تخبو لغلبة أهوائهم؛ وذلك لأنّ هؤلاء المنافقين يعرفون الله تعالى، ويدركون معاني الإيمان، ولكن غلبت عليهم شِقْوَتُهم، فكفروا به إذ عرفوه، ومن كانت هذه حاله يعتريه أحيانًا تذكّر لله تعالى وعظمته، ولكنّه تذكّر لَا يكون معه إيمان مثمر، ولا تصديق مذعن، فلا خير فيه، ولا ثواب عليه، ولا يمدحون بذلك القدر من الذّكر، الذي لَا يجدي"[2].

لم يمدحهم الله على ذكرهم هذا؛ لأنه لا تُجنى منهُ ثَمرةُ الإيمان ولا حبّ الله

دلالة الاستثناء:

دل الاستثناء على أن زمان الذكر قليل؛ لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو أنّ الذّكر ذاته قليل في الصّلاة، ويكون "الِاسْتِثْنَاءُ إِمَّا مِنْ أَزْمِنَةِ الذِّكْرِ، أَيْ إِلَّا وَقْتًا قَلِيلًا، وَهُوَ وَقْتُ حُضُورِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ يَقُومُونَ إِلَى الصَّلَاةِ مَعَهُمْ حِينَئِذٍ فَيَذْكُرُونَ اللهَ بِالتَّكْبِيرِ وَغَيْرِهِ، وَإِمَّا مِنْ مَصْدَرِ يَذْكُرُونَ، أَيْ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ الَّتِي يُرَاءُونَ بِهَا، وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِي لَا مَنْدُوحَةَ عَنْ تَرْكِهِ مِثْلَ: التَّأْمِينِ، وَقَوْلِ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَالتَّكْبِيرِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ لَا يَقُولُونَهُ مِنْ تَسْبِيحِ الرُّكُوعِ، وَقِرَاءَةِ رَكَعَاتِ السِّرِّ"[3].

دلالة الاستثناء على قلة زمان الذكر لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو على قلة الذكر فيها

دلالة اختلاف التعبير بين موضع سورة البقرة وموضع سورة النساء:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:

(1) الواحدي، البسيط: 7/161.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1918 - 1919.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.

9]، وقال في سورة النساء ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾؛ فالملاحظ في سورة البقرة عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] على لفظ الجلالة بخلاف موضع النساء؛ فلم يرد فيه ذلك؛ ولعل السبب في عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] في سورة البقرة أنَّها سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 8] الآية، ومعلوم من السياق أنَّ هذا القول صادر من المنافقين للذين آمنوا خداعًا لهم؛ فناسب في موضع البقرة ذكر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] بخلاف موضع سورة النساء؛ فسبقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140]، ولم يرد ذكر الخداع صراحة للمؤمنين، لذلك لم يرد ذكرهم في الآية.

ومما يذكر في هذا المقام أنَّ موضع سورة النساء عُبر فيه بالاسمية في جانب خداع الله لهم.

ويضاف إلى ما ذكر سابقًا أنَّه لمَّا كان الجزاء من جنس العمل، وكان خداع الله لهم - بمعنى مجازاتهم ومعاقبتهم - أمرًا ثابتًا لا شك فيه، ناسب التعبير بالاسمية التي تدل على الثبوت والاستمرار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّياء والنّفاق:

الـرّيـاء أعـمّ مـن الـنّـفـاق، وهـو أنـسـب في السّياق لأنّه ذكر الـصّـلاة، فهم أظـهـروا العمل الجميل ابتغاء الثّناء

"النِّفَاق إِظْهَار الْإِيمَان مَعَ إسرار الْكفْر. والرِّياء إِظْهَار جميل الْفِعْل رَغْبَةً فِي حمد النَّاس، لَا فِي ثَوَاب الله تَعَالَى، فَلَيْسَ الرِّيَاء من النِّفَاق فِي شَيْء فَإِن اسْتعْمل أَحدهمَا فِي مَوضِع الآخر فعلى التَّشَبُّه وَالْأَصْل مَا قُلْنَاهُ"[1] فالرّياء كالنّفاق، ولكنّه أعمّ[2]، لكونه يقع في الأعمال وفي العقائد.

وغالب استعمالات الرياء في القرآن الكريم وردت في مواطن الإنفاق، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264] ونحو

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 228 - 229.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/205.

ذلك من الآيات؛ فالمرائي لا ينفق ماله طلبًا لرضا الله وثواب الآخرة، بل ليقول الناس إنه سخي كريم، أمّا النّفاق فقد ورد في كثير من آيات القرآن، وكلّها تدور حول إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولذلك يشتركان في الإظهار والإبطان مع اختلاف متعلّق كل منهما.

والرّياء ناسب الآية لأنّهم وإن كانوا منافقين إلّا أنّهم أظهروا العمل الجميل وَأَرَوا النّاس ما يستحسنونه ابتغاء تحقيق رِضَا النّاس عنهم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»